المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:08، العدد:03 (2024)، ص157-168

مدرسة أطلس تاريخ الإسلام خلال القرن 4هـ/10م من النشأة إلى الأفول

The Atlas School of Islamic History during the 4th century AH-10 AD From emergence to decline

كمال خلفات
جامعة سطيف 02 (الجزائر)
k.khalfat@univ-setif2.dz

معلومات المقال
تاريخ الارسال:
2024/10/14
تاريخ القبول:
2024/12/01
الكلمات المفتاحية:
✓ أطلس
✓ الإسلام
✓ الاقتصادي
✓ الاجتماعي

الملخص:
يعالج هذا المقال نشأة وتطور مدرسة أطلس تاريخ الإسلام والجهود التي بذلها روادها من أجل تقديم صور وخرائط ومعلومات في غاية الأهمية لمملكة دار الإسلام خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، ولكي يتوصل الباحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي إلى تكوين صورة عامة عن موارد البلدان الكبرى في دار الإسلام، وكذلك مصدر المبادلات التجارية، وحيوية الأرياف والمدن. وهي غالبا نصوص صريحة وواضحة بالنسبة للباحث في الجغرافية البشرية. كما تهدف هذه الدراسة إلى محاولة معرفة المنهج والأهداف الّذي اتبعه رواد هذه المدرسة في تدوينهم، وصولا إلى الغايات التي سعوا لتحقيقها إما على الصعيد السياسي أو الاقتصادي إلى غاية أفولها.

Article info
Received:
14/10/2024
Accepted:
01/12/2024
Key words:
✓ Atlas
✓ Islam
✓ The Economic
✓ The Social

Abstract:
This article deals with the emergence and development of the Atlas of the History of Islam school and the efforts made by its pioneers in order to provide very important images, maps and information about the Kingdom of Dar al-Islam during the second half of the fourth century AH and the tenth century AD, and so that the researcher in economic, social and political history to form a general picture of the resources of the major countries in Dar al-Islam, the source of trade exchanges, and the vitality of the countryside and cities, which are often explicit and clear texts for the human geography researcher. This study also aims to try to identify the methodology and objectives followed by the pioneers of this school in their codification, in order to reach the goals they sought to achieve either on the political or economic level until its demise.

مقدمة

اهتم مؤرخو الدولة العباسية خلال القرن الأول الهجري/السابع الميلادي بتدوين وترجمة مؤلفات البلاد المفتوحة خاصة بلاد فارس مع توسع الفتوحات الإسلامية وامتداد الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية فقد أدرك الخلفاء العباسيون أهمية البريد في الحفاظ على مملكتهم، فكان صاحب البريد شخصية هامة في النظام الإداري للخلافة، لما له من دور في جمع المعلومات السياسية والاقتصادية الضرورية، وسيكون لتنظيم البريد دور مفيد في تطور الجغرافية الإسلامية فيما بعد خاصة ما سيعرف بأدب المسالك والممالك أو الجغرافية الأدبية الوصفية. وبذلك كانت بلاد فارس مركز الثقل في الكتابة التاريخية في هذا العصر بالرغم من تبعيتها لبغداد مركز الخلافة؛ فكثيرون من مؤرخي المشرق عموما كانوا من الفرس، ومنهم من التحق بالنظم الحاكمة كمؤرخي للبلاط.

كلّ هذه المعطيات التاريخية تدفعنا إلى طرح اشكالية التالية: **كيف تطورت مدرسة أطلس تاريخ الإسلام من نمط جغرافية المسالك والممالك إلى نمط الجغرافية الإدارية والبشرية؟ وما هي الخدمات التي قدمتها هذه المدرسة لحقل التاريخ الاجتماعي والاقتصادي؟**

نسعى في هذه الدراسة للكشف عن تطور نمط جغرافية المسالك والممالك إلى غاية تأسيس مدرسة أطس تاريخ الاسلام وعن هوية وثقافة ومنهج كلّ من ساهم في تطوير هذه المدرسة، وذلك لتسهيل للباحث في ذهنيات المجتمعات الإسلامية العربية والغير عربية ومقوماتها الاقتصادية والبشرية والتجارية خاصة بعد الانفتاح والاندماج بين الكتابة الإدارية والبشرية.

1. تطور مدرسة أطلس تاريخ الإسلام

كانت مملكة الإسلام تمتد في عهد الخلافة العباسية(656-132هـ/749-1258م) من الهند حتّى الأندلس إلى بلاد روسيا شمالا، ولا يمكن دراسة رقعة شاسعة كهذه ووصفها اطلاقا على يد مكتشفين فرادى، ولا يمكن انجاز مثل هذه المهمة إلا بواسطة مؤسسة مركزية معتمدة على محفوظات منظمة، أو بواسطة فرق من العلماء والرحالة، ولقد تطور الاهتمام المناهجي في الجغرافيا في البداية، تحت إشراف الخليفة المأمون (198-218هـ/813-833م) فقد قام فريق من العلماء، تحت رعايته بقياس خط الطول في البادية الشامية قرب جبل سِنْجَارُ[1]، ويوجد عمل كارتوغرافي يحمل عنوان الصورة المأمونية، تحقق بفضل رعاية هذا الخليفة المستنير، ومن الممكن أن يكون ذلك أوّل مخطط لأطلس الإسلام (مينورسكي، 1985، صفحة 8).

ولقد تخرج من النادي المأموني مؤلف أول كتاب جغرافي مستقل كان فاتحة سلسلة المسالك والممالك فقد كان ابن خرداذبة، الّذي يشير اسمه إلى أصله الفارسي، يعيش في بغداد، وكان مدير البُرد الخليفية، أي صاحب البريد، وقد دبج كتابه في عام 232هـ/ 846م، ولا يبدو على أي جغرافي، جاء من بعد ابن خرداذبة، أنّه استطاع أن يتخلص من تأثيره، حيث اعتمد على المؤلفات اليونانية واللاتينية بعد ترجمتها وكان كتاب بطليموس ومارينوس في الجغرافيا أحد هذه المؤلفات.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ثمّ توالت الكتابة في هذا الفن الجغرافي إلا أنّه عرف تطورا كبيرا منذ القرن 4ه/10م، نتيجة التأثير الّذي مارسته الثقافات الهندية والفارسية واليونانية نتيجة حركة الترجمة المستمرة.

وحتّى نفهم أشكال الجغرافية المكتوبة باللغة العربية بعد سنة ألف للميلاد وطبيعتها الفكرية، ينبغي ألا يغيب عن بالنا الحدث الهام الّذي يتمثل في انتقال مقاليد الحكم في الشرق الأدنى الإسلامي إلى أتراك آسيا الوسطى وسيطرتهم على الخلافة العباسية ببغداد ليست سوى واحد من المظاهر الأكثر شهرة وذيوعا للتغيرات التي عرفتها دار الاسلام، إلى جانب الحملات الصليبية، والصدمة التي أحدثها الغزو المغولي، واحتدام القطيعة بين غرب الإسلام وشرقه من جهة، وانتشار الإسلام السني من جهة أخرى.

2. أهم رواد المدرسة ومناهجهم

سنعالج في هذا العنصر هوية رواد هذه المدرسة ومناهجهم وأهمية مصنفاتهم أما عن ثقافتهم يمكن تصنيفهم حسب المذهب، وحسب المهنة في آن؛ إذ إنّ معظمهم كانوا على المذهب السني؛ برغم تشيع معظم الفرس، كما وجد مؤرخون من الشيعة ومنهم من تقلدوا مناصب رفيعة في الدولة.

عرفت مملكة الإسلام في العهد العباسي إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/10م تطور مدرسة تسمى مدرسة "**أطلس الإسلام**" يمثلها الرباعي: **البلخي، والاصطخري، وابن حوقل، والمقدسي** (ميكيل، 2016، صفحة 196)، كانت تسعى هذه المدرسة إلى وصف العالم الخاضع للحكم الإسلامي، من الأندلس إلى آسيا الوسطى وبلاد السند، ولا شيء غير هذا العالم، واللحظات النادرة التي تُستحضرها فيها شعوب أجنبية في تلك المتون لا تأتي إلا بمناسبة دراسة أحد الأقاليم الحدودية، في شكل جولات فيها، وهي في جميع الأحوال نادرة جدا وشديدة الوجازة مقارنة بمجمل العمل المكتوب. ويوصف هذا العالم إقليما بعد إقليم، أي ما يبلغ مجموعه أربعة عشر إقليما حسب المقدسي، بيد أن أهم ما في الأمر هو أنّه بغض النظر عن الخصوصيات المميزة لكل بلد لا بل حتّى عن الشقاقات السياسية، يعرض هؤلاء، المؤلفون هذا المجال الإسلامي باعتباره كلا واحدا يسمى "**مملكة الإسلام**" أو "**المملكة**[2]" لا بل حتّى "**الإسلام**" (ميكيل، 1993، صفحة 312).

حظيت كتابة **أبو زيد البلخي** (236ه/850م-322ه/934م) باهتمام فائق واشادة المستشرقين إذ يعد مؤرخا عظيما الشأن في تاريخ تطور الجغرافية البشرية، ويعتبره بروكلمان: "**مؤسس المدرسة الكلاسيكية في الجغرافية العربية**" (بروكلمان، 1950، الصفحات 246-247). كما يمثل البلخي مرحلة حاسمة في تطور صورة الأرض، فهو يمتلك ذهنا دقيقا يميل بفطرته إلى التعميم الميسر، إلا أنّه يركز في كتابه "**صور الأقاليم الإسلامي**"[3] على خراسان عوضا عن العراق، وكان قد شغل فيها منصب كاتب في خدمة السلالة السامانية[4].

ويعترف له المقدسي (ت380ه/990م) مرارا عديدة بصراحة بإتقان وصف خراسان، وخصوصا وصف تنظيمها الإداري والمالي. وكان البلخي أوّل من تخلى عن أقاليم بطلميوس السبعة الموزعة على العروض، وأخذ بتقسيم دار الإسلام إلى عشرين جزءا. وأطلق عليها اسم اقليم وقصد به كيانات أرضية إسلامية أي كيانات غير

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

نظرية، موجودة فعلا، يعيشها النّاس تقريبا، أو قل يتحسسونها، ويطرح استعمالها قضية ظهور مؤثرات جديدة تفعل فعلها في نمط صورة الأرض (المقدسي، 2003، صفحة 38).

وتطورت صورة الأرض تطورا آخر، أهم من تطورها السابق، عندما برز فيها نهائيا مفهوم المملكة، التي يعالجها البلخي بروح مدرسة الكندي[5] بعد أن انتسب إليها ردحا من الزمن.

أما دوام عقلية فارس الجغرافية السياسية ذاتها، في هذه الحالة فيُعلل بتأثير الوسط الّذي رعاها، وبذلك نثير قضايا أخرى تهم علاقات صورة الأرض بالجغرافية الإدارية، بالفعل، مر معنا أن البلخي كان على صلة بالإدارة السامانية، وأنه قصد أيضا بغداد، التي تسنى له فيها أن يتعرف على مدرسة الكندي وعلى أوساط أخرى، لا سيما أوساط الإدارة المركزية، من ناحية أخرى، حيث صنف عام 308هـ/920م ومن ثمة أطلع بالتالي حتما على مصنفات ابن خرداذبة[6] واليعقوبي[7]. والجيهاني[8] وقدامة بن جعفر[9] ذاته، الّذين يصادفون أثناء ممارستهم الإدارية، الولايات الكبرى نفسها الواردة في جغرافية العصر السياسية. إذن لا يجوز لنا أن نعجب إذا رأينا صورة الأرض، في مرحلة التطور الدقيق الذي بلغته مع البلخي، إذا تبدي في موضوعاتها ولو بطريقة متواضعة نوعا من التلاقي مع الجغرافية الإدارية.

وإذ تبارى الرحالة الرسميون في رسم صورة دقيقة لأقاليمهم الّذين ينتمون إليها عرقيا تعبيرا عن نزعة شعوبية، فلا نعدم وجود جغرافيين تجاوزوا العامل العرقي والديني. لذلك انطوت كتاباتهم على قدر من الحياد والموضوعية؛ فقد مثّل أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (ت340هـ/951م)، الّذي يعود أصله إلى اصطخر، والّذي زار أكثر أقطار آسيا حتّى بلغ سواحل المحيط الهندي، ويورد الاصطخري عن كلّ قطر معلومات؛ عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات، ويروي تفاصيل متفرقة عن الحاصلات والتجارة والصناعة وعن الأجناس، ومعظم التفاصيل تتعلق بالبلاد التي زارها، لذا يعُد مؤلفه سوى نسخة موسعة من كتاب البلخي، فقد أتم عمله بعد أن أضاف إليه كثيرا من المعلومات، وعلى الخصوص من إقليم فارس الكبير، في بلاد العجم، الّذي كان موطنه الأصلي، وقد ألف الاصطخري كتابه باللغة العربية ولكن هناك العديد من الترجمات عنها بالفارسية، وقد سمح للرائد الثالث الّذي سنعالج مساهمة في تطوير أطلس الإسلام بأن يعيد النظر بكتابه، وأن ينقحه فيما بعد (مينورسكي، 1985، صفحة 11).

لا يوجد هناك شك في أن صورة الأرض والجغرافية الإدارية وصلت إلى أقصى منتهاهما عن طريق الأدب ومعرفة المعمورة أو أراضي دار الإسلام معرفة أصبحت كلاسيكية، ولا بد لهما في المستقبل أن تعملا مستقلين، وتحدثا ثورة سوف يحققها محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، وريث الاصطخري الروحي، تداول مصنفه وعدله واسماه "**كتاب المسالك والممالك**" وفي بعض النسخ "**صورة الأرض**" يمثل هو والمقدسي أميز مصنفي كتب المسالك والممالك، بسعة الوثائق الشخصية، وبشيء أن يكون أفضل نعني حرصه على إعطاء آخر المعلومات، ويعتقد أن كتابة مصنفه الّذي دام عشرين عاما حتّى خرج بصيغة نهائية حوالي 378هـ/988م.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

بدأ تجواله من بغداد في رمضان 331ه/943م متخذا التجارة مهنة له، ولكنه ربما كان في الحقيقة داعيا سياسيا، وقد انتظم تجواله بالغرب الإسلامي وجزر الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد ظهر الاهتمام بالجغرافيا لديه مبكرا، ومما حفزه إلى ذلك مقابلته للاصطخري عام 340ه/952م التي يرويها فيما يلي: "**وكان أكثر ما حداني على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة أني كنت في حالة الحداثة شغفا بأخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحي ووكلاء التجار وقراءة الكتب المؤلفة فيها، وكان لا يفارقني كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهاني وتذكرة أبي قدامة بن جعفر، ولقيت أبا اسحاق الفارسي وقد صور هذه الصورة لأرض الهند فخلطها وصور فارس فجودها وقد كنت قد صورت أذربيجان التي في هذه الصفة فاستحسنها والجزيرة فاستجدتها**".

من هذا يتضح أن ابن حوقل شأنه شأن بقية ممثلي المدرسة الكلاسيكية، قد حصر اهتمامه على وجه التقريب في وصف "**دار الإسلام**" خاصة بلاد فارس، ولكنه كان يتجاوز في حالات معينة بالطبع نطاق العالم الإسلامي، فمثلا لا يخلو من بعض القيمة روايته عن هزيمة الروس للبلغار والخزر حوالي 358ه/969م، حين كان المؤلف نفسه آنذاك بجرجان.

كما يجب الاعتراف بأن ابن حوقل هو الخبير الأول من بين جغرافي هذه المدرسة في شؤون المغرب، وكثيرا ما انعكست المصالح التجارية لابن حوقل في تضاعيف كتابه، وتقدم المادة التي جمعها لوحة طريفة لحضارة العالم الإسلامي في ذلك العهد، فهو قد التقى مثلا في سجلماسة بجنوبي مراكش بتجار عراقيين من أهل البصرة والكوفة المقيمين هناك.

وتبرز الميول السياسية لابن حوقل من وقت لآخر جلية للعيان، ومن الطريف في هذا الشأن موقفه من أمويي الأندلس؛ فهو يقدم لنا في مصنفه صورة من أدق الصور للأندلس في العصر الأموي، ويرى دوزي في ابن حوقل جاسوسا للعبيدين بلا ريب، غير أن ليفي بروفنسال لا يرى فيه هذا الرأي القاطع إنّما هو في رأيه على أية حال من عملاء العباسيين أو العبديين، والأسباب التي دفعت إلى هذه التهمة تبدو من طيات كتابه إذ يمكن ابصار عواطفه الشيعية حيث إنّه كان من أوائل من قدموا معلومات وفيرة عن قرامطة البحرين، الّذين عرفهم فيما يبدو جيدا وعن كثب، وفوق ذلك فإنّ ابن حوقل قد عاش طويلا بقرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث أي عهد ازدهار خلافة الأمويين بالأندلس، وهو يورد معلومات وافية عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالأندلس ويبين المحاصيل المصدرة إلى المغرب، وإلى مصر وله معرفة جيدة بتجارة الرقيق التي كان يقوم بها تجار منقطعون لها، ويقدّم لنا ابن حوقل صورة سلبية عن شجاعة أهل الأندلس وعن نظامهم الحربي والإداري، مُبديا دهشته لعجزه عن إدراك السرّ في احتفاظهم باستقلالهم، حتّى ذلك الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الإسلامي، ويمكن أن يُؤخذ قوله بأنّه يرى ذلك أمرا سهلا بمثابة إيعاز لعبيدين أو العباسيين بالتدخل (كراتشكوفسكي، 1957، الصفحات 201-206).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وقد تم وصف كلّ من هذه الرقع الأرضية حسب مميزاتها الطبيعية، مدن، وطرق، ومنتجات الأرض وتفصيلات أخرى عجيبة وصحيحة بشكل مستفيض للغاية، إنّه جغرافي ميداني بامتياز (مينورسكي، 1985، صفحة 11). لقد عرض لنا ابن حوقل مملكة الإسلام في خريطة وفي كتاب ككتلة متماسكة مقسمة تقسيما عقلانيا، يثبت ويقنع أن وحدة دار الإسلام، "**ما تزال قائمة" في الحقيقة والواقع؟**

مهما يكن، يتميز كتاب ابن حوقل بالحماس الضعيف والسياق الحر، مما يسمح بسهول بانتهاز فرص التباكي التي لا تحصى، فحسب اندريه ميكيل، هو جغرافي مُصمم على التشاؤم مستدلا ببعض الشواهد التي أوردها ابن حوقل في كتابه، وسبب ذلك أن غارات الروم زادت عند ابن حوقل عما كانت عند المقدسي، ومن يطالع كتاب صورة الأرض، يشعر كما لو أنّه يقرأ خريطة الاجتياحات والخراب، فالبكاء على مآسي الدهر لا تنتهي فيه، ويستغرق صفحات طوالا، ويبدو إقليما الشام والجزيرة أراضي مدمرة، ويرد اسم القائد البيزنطي نقفور فوقاس في النصّ، وتدخل جيوشه البلاد، فخربت الأرياف التي عاد إليها البدو، وأحرقت المدن، ودُمرت القرى، وانتشر النصارى في جميع الأماكن تقريبا. وفي هذا القدر ما يكفي من تعداد الكوارث (حوقل، 1996، الصفحات 200-201).

ومن النماذج كذلك يورد ابن حوقل المشهد الحزين في الأقاليم الأخرى كالمغرب الإسلامي والأندلس، فيذكر أن تاهرت تغيرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت (حوقل، 1996، صفحة 93).

أما الجغرافي الميداني والذي يحفل كتابه "**أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم**" لمحمد بن أحمد المقدسي[10] بمعلومات جغرافية وسياسية وحضارية في آن، دون أن ينسلخ عن الماضي، رغم أصالته ورغبته بالبقاء أصيلا، وقد رأينا أنّه يشير عرضا إلى التقسيمات الأرضية القديمة، ولاحظنا أنّه يتبع التقليد في عرضه العام لسيئات شتى البلدان والمدن وحسناتها في دار الإسلام إلاّ أن تدوين السيئات نادر، وبهذه الطريقة أصبح المجال مفتوحا أمامه ليكتب عمله الحقيقي، وهو الجغرافية كما يتصورها، أي وصف دار الإسلام وصفا مبنيا على تقسيم أرضها تقسيما دقيقا، وعلى استعمال مصطلحات تقنية ملاءمة.

فمملكة الإسلام تشمل أربعة عشرا إقليما ستة منها عربية، وثمانية أعجمية، أما الأقاليم العربية فتشمل: جزيرة العرب، والعراق، والجزيرة، والشام، ومصر والمغرب، والأعجمية الواقعة بالمشرق تشمل: (السمانية، والديلم والرحاب، والجبال، وخوزستان، وفارس، وكرمان، والسند، ويتوطد هذا الترتيب شبه الكامل بالنهج المنتظم المتبع في عرض الأقاليم، الّذي يستهل بفقرة رائعة الأسلوب، مسجوعة، يحاول فيها المقدسي رسم لوحة البلد المتضادة، بما لها وعليها، قبل أن ينتقل إلى التقسيمات الفرعية، ثمّ يأتي وصف المدن الواحدة تلو الأخرى.

ومتى ينتهي من تدوين التفاصيل يجيئ دور فصل عنوانه "**جمل شؤون الإقليم**"، ترد فيه معطيات عامة عن الهواء، والعملات، والموازين والقراءات، والمحاصيل وما ينفرد به كلّ إقليم، والعجائب، والمياه، والمعادن، والجبال، والتقويم، والمشاهد، والسلطة السياسية والمسافات وقطعا لا تكتمل هذه اللائحة في جميع الأقاليم،

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ويختلف ترتيب على ما هو أساسي في جميع الفصول، ويستعرض الكيان الإقليمي في كلّ مرة، في تقديم مماثل، واضح تبعا لذلك، وهكذا يسود النظام، ويتجه إلى الأعلى لتتكون من الأقاليم الاثني عشر، مملكة إسلام متوافقة ومتوازنة، وإلى الأسفل أيضا في تشابك الأقاليم ذاتها. إنّه نظام مذهل جدا إذا قورن بنهج ابن حوقل المتبدل حسب أندري ميكيل (أندريه ميكيل، 1993، الصفحات 226-227).

وتبرز أصالة المقدسي الثابتة، أنّه يصرح بلا لبس أنّه لم يتكلف زيارة ممالك الكفار، فبعد إعلان مثل هذا الاعتقاد الراسخ، لا نعجب لأنه تخلى عن تقليد تقديم العالم في مدخل مصنفه، وضمنه فصلا مختصرا جدا تليه أبحاث طويلة جدا وتصير تكفي نفسها بنفسها بعد الآن، ويعترف بذلك بأنّه لم يتكلف وصف ممالك الكفار، لأنه لم يدخلها، ولم يذكر إلا مواضع المسلمين منها؛ ومثال ذلك في قوله: "**وقد اعرضنا عن ذكر طرسوس وأعمالها لأنها بيد الروم**" وكان عدم دخوله لها كافيا في منعه من التعرض لوصفها، لأنه كان يجعل المشاهدة ومعاينة ما يريد الكلام عنه أوّل دعامة لكتابه (ميتز، 1986، صفحة 457).

لكن المقدسي لم يزر الأندلس واعترف بعجزه عن تكويرها، لكنّه لا يعلن عن هزيمته تماما ويقول إن بعض الأندلسيين حدثوه أن في الأندلس إضافة إلى بعض النواحي ثلاثة عشر إلى تسعة عشر رستاقا، تُعادل بالتالي الكور، وتقسم إلى أقاليم أي رساتيق حسب نظام المؤلف[11].

لقد أوردت الأحداث بتقسيم دار الإسلام إلى أقاليم على النحو الرائع المعروف، ولم يعد لرقعتها الواسعة عاصمة واحدة، بل ثلاث عواصم وثلاث خلافات متخاصمة في قرطبة والمهدية وبغداد[12] يضاف إليها التوتر بين أقطاب السلطة الثلاثة وقطب رابع هو قطب في المدينتين المقدستين مكة والمدينة، فقد تجزأت دار الإسلام سياسيا، لكنّها سوف تصمد قطعا لا كجماعة تحكمها سلطة موحدة أو تتطلع إلى الوحدة، لذا يعد مصنف المقدسي نموذجيا ويؤول تركيبه الكامل إلى التغلب على الواقع ذاته، لأن البلدان الأربعة عشر، المقدّمة لنا، تُمثل إعلان مبادئ، وتنبؤنا أن بقاءها يساعد التاريخ والجغرافية، عند اتحداهما، على تجاوز تقلبات التاريخ بمفرده، ثمّ أن هذه الأقاليم المسلمة الأربعة عشر، ليست بلدانا منعزلة رغم أصالتها فمن خلالها تتراءى دنيا الإسلام أو مملكة الإسلام أشبه بهيئة عظيمة كلها حياة، تضم مدنا وطرقا تنقل عليها السلع والأخبار والثقافة والنظام الاجتماعي، ويبدو أن تنظيم دار الإسلام يكمن في النهاية في الصلات القائمة بين المسلمين.

ويذكر المقدسي صراحة؛ أنّه اعتمد في كتابه هذا على موارده في عدة أماكن من بحثه على الجاحظ[13] (ميكيل، 1993، صفحة 134) (ميكيل، 2016، الصفحات 198-199) (محمود، 2005، الصفحات 129-130) (المسعودي، 1990، الصفحات 568-569) وابن خرداذبة، وقدامة وابن الفقيه، ولا شك أنّه ينتقدهم ويزعم أنّه يؤسس الجغرافية الحقيقية بعدهم وضدهم؛ وهذا راجع إلى انتمائهم وثقافتهم ومنهجهم.

3. نهاية مدرسة أطلس الإسلام

بعد عرضنا هذا لرواد هذه المدرسة رُغم الشقاقات السياسية التي كانت، في الوقت نفسه الّذي كان فيه هؤلاء الجغرافيون منكبين على أعمالهم، آخذة في تقسيم كيان المملكة إلى عدد من الكيانات الصغرى، كان هناك أولا

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الخلافات الثلاثة المتنافسة؛ نقصد خلافة قرطبة وخلافة القاهرة وخلافة بغداد، ولكن كان يتبع أيضا لهذه السلطات الثلاثة العديدُ من الدول والسلالات أو الأقاليم المستقلة واقعا. لا بل إن هذا الاستقلال، الّذي يعزّزه التفرد الجغرافي لتلك الكيانات، أو خصوصية حقبة من حقبها التاريخية، هو ما يستند إليه المقدسي في تقسيمه للأربعة عشر إقليما التي تضمُّها المملكة.

إنّ الثقافة هنا إذن هي في آن معاً مستنسخةٌ عن التاريخ الفعلي ومتأخرةٌ عنه. والعالم الإسلامي هو بالفعل، كما يبينه "**أطلسُ الإسلام**" واحدُ ومتعدد في الأوان ذاته، بيد أن ما كان يتهيأ في الأفق في نهاية القرن الرابع الهجري/10م، هو انفجار كلي ونهائي، لدرجة أنّه في الوقت الّذي كانت فيه الجغرافية (جغرافية ابن حوقل والمقدسي) تُعطي المملكة صورتها النهائية المكتملة، كانت تلك المملكة قد صارت واقعة تحت حكم التاريخ، وبالتالي ما كاد "**أطلس الإسلام**" ينبع حتّى صار جنسا جغرافيا متجاوزا.

على كلّ حال بعد القرن 4هـ/10م، اختفت عبارة "**مملكة الإسلام**" من نصوص الجغرافيين تماما، ما يدل على أن المفهوم الّذي يطابقها لم يعد موجودا، وبالتالي ما عاد بإمكانه إنتاجها، ولا عجب إذن أن يختفي "**أطلس الإسلام**" بدوره في دوامة الأحداث، ولعلّ الكتاب الوحيد الّذي بوسعنا أن ننسبه إلى هذا التقليد، حسب أندريه ميكيل كتاب "**المسالك والممالك**" للبكري (ت487هـ/1094م) الّذي يُنظم عملية الوصف حسب مسالك معينة، وفي جميع الأحوال، يقوم بذلك دون أن يستدعي مفهوم المملكة أو لفظها، سيؤول الأمر منذ تلك اللحظة إلى الاشتغال على جغرافية الدُّول والجهات، أو الكرة الأرضية في مجملها.

وهناك سبب آخر لأفول هذه المدرسة إلى التعبير –اللّغة– فحتى تلك اللحظة كانت الجغرافية تسهم في الحركة الثقافية الكبرى التي تظل على هذا الصعيد أعظم تجليات الحضارة الّذي بلغته الخلافة العباسية ببغداد، ولم تمنع المؤلفين أصولهم الاثنية من أن يؤدوا ورقة اللّغة التي كرسها القرآن (لومبار، 2003، صفحة 17).

غير أن التغيرات التي ألحقها التوغل التركي، وبعده المغولي، على الخريطة اللغوية للشرق الإسلامي، اختفت بذلك مراكز اللّغة العربية التي كانت موجودة ببلاد فارس، وفي غمرة المنعطفات التاريخية التي عرفتها المنطقة، ومنها أفول السلطة المركزية ثمّ امحاؤها تماما بعد السيطرة المغولية 656هـ/1258م، ظهرت سلالات أخرى في الساحة إلى جانب العرب والتي قرر أصحابها تفضيل التعبير بلغتهم الأم وقد تبعت الجغرافية ومعها علم الخرائط. وهذا ما أدى إلى أفول هذه المدرسة.

خاتمة

وصفوة القول يفتح هذا الموضوع آفاقا جديدة فيما يتعلق بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي، من خلال المنظور الفارسي والأجنبي، خاصة المستشرقين الّذين اهتموا بترجمة ونشر مؤلفات هذه المدرسة والإشادة بها.

إن التعاون بين الجغرافيين الثلاثة، أي البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي أسهم في تقديم معلومات جغرافية وسياسية وحضارية في آن ومعطيات رقمية غفلت عنها المصادر الاخبارية خاصة فيما يتعلق بالنشاط

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

التجاري في العالم الإسلامي.

يحيلنا هذا التعاون إلى دعوة النخبة المغاربية بصفة عامة والجزائرية بصفة خاصة إلى إنشاء أطلس مصور لتاريخ الجزائر منذ بداية الفتح إلى غاية الدخول العثماني، والتركيز على بقايا آثار المدن والأرياف وتوجيه الباحثين إلى رصد أهميتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في قيام دول.

يمكن لنا وضع صور أو خرائط للعالم الإسلامي اليوم؛ رغم التمزق والشقاق بين المسلمين خاصة ظهور كيان صهيوني داخل العالم الإسلامي في فلسطين محاولا طمس المعالم وحدة دار الإسلام سياسيا وجغرافيا، من خلال الدعوات السياسية ووضع خرائط وصور الكترونية تروج لأغراضه التوسعية.

التعليقات والشروحات

1 مدينة مشهورة من نواح الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال، فسميت سنجار. (الحموي، 1977، الصفحات 262-263).

2 قد يكون لفظ "**المملكة**" مصدر ملك: بمعنى حاز أو استولى، إلا أنه يعبر بالتخصيص عن الشيء المملوك.

3 قام محمد حسن سهيل الدليمي بدراسة مخطوط صور الأقاليم والذي اعتمد على ثلاثة نسخ؛ الأولى نسخة مكتبة الحكيم العامة في مدينة النجف تقع هذه النسخة في 176 ورقة و25 سطر في كل ورقة، وهذه النسخة مزودة بخرائط يبلغ عددها 20 خريطة. أما النسخة الثانية التي اعتمدها الباحث نسخة مكتبة الملك عبد العزيز في المدينة المنورة تبلغ عدد أوراقها 112 وعدد الأسطر 21، أما النسخة الثالثة نسخة دار المخطوطات العامة ببغداد برقم 40129 وهي نسخة مصورة عن النسخة المحفوظة في كلية الآداب بجامعة بغداد برقم 329 قبل عام 2003م. لكن ما لفت انتباه في هذه الدراسة أنه لا توجد أي ملاحق للمقال أي اية نماذج للمخطوط أو بعض الصور الخطية التي اعتمد عليها ولقد تمت مراسلة صاحب المقال لتوضيح ذلك لكن دون رد إلى آخر يوم تم ارسال فيه المقال. (سهيل، 2020، الصفحات 155-156).

4 قامت الدولة السامانية في إقليم ما وراء النهر، ويرجع نسب السامانيين إلى إحدى الأسر الفارسية العريقة التي كانت تدين بالزرادشتية. وبرز أمر السامانيين في أيام الخليفة المأمون سنة 204هـ/819م ولما تولى طاهر بن الحسين بلاد خراسان، أقرهم على ما بأيديهم، لذلك كان التعاون يجمع ما بين السامانيين والطاهريين على حماية الثغر الشرقي، وعندما قام النزاع بين الطاهريين والصفاريين وقف السامانيون إلى جانب الطاهريين، ولما انتهى النزاع باستيلاء الصفّاريين على إقليم خراسان، أقر الخليفة المعتمد على الله: 256-279هـ/870-892م، نصر بن أحمد الساماني على إقليم بلاد ما وراء النهر منفصلا عن خراسان، تقديرا لإخلاصهم للخلافة، وذلك سنة 261هـ/874م، فاتخذ من مدينة بخارى عاصمة له.

تمكنت الدولة السامانية من الاستمرار مدة أطول من غيرها -128سنة- بفضل علاقتها الحسنة بالخلافة العباسية، شهد العصر الساماني نهضة علمية وأدبية ضخمة بفضل تشجيع ملوكها للعلماء وحرصهم على جمع الكتب الثمينة إحياء للغة الفارسية وترجمة الكتب العربية إليها، فكانت العاصمة "**بخارى**" مركزا من أهم المراكز العلمية الإسلامية.

لكن الدولة السامانية لم يكتب لها أن تعمر طويلا بعد نزاعها مع البويهيين بين سنتي 356-361هـ/967-971م، ثمّ بسبب النزاع بين أفراد الأسرة السامانية على الحكم، إضافة إلى تمرد بعد القادة، واستقلال عمال الأطراف عنهم واستعانة هؤلاء ببني بويه، فانتهت الدولة السامانية بعد مائة وسبعين عاما على أيدي الغزنويين من جهة خراسان، وخانات الترك من جهة بلاد ما وراء النهر وذلك في سنة 389هـ/999م. (هوشات، 2023، الصفحات 79-111) (الدوري، 2011، الصفحات92، 93، 94)

5 ولد الكندي بالكوفة، ونشأ في البصرة، وتعلم في بغداد، فتمرس على العلم اليوناني واتسم انتاجه بطابع تربيته: فضم مصنفات موسيقى وفلك أو تنجيم، وهندسة وطب، وأنواء وفلسفة، لكنه كتب ايضا مصنفين يتصلان بالعوم الجغرافية: أحدهما رسالة في البحار والمد والجزر،

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والآخر–استلهمه من بطلميوس مباشرة، في رسم المعمور من الأرض. ويقال أن الكندي المتوفى بعد عام 256هـ/870م، ينسجم مع ذهنية عصره، الحريص على تجريب معطيات علم قياس الأرض وعلى ادخال أسماء الأماكن العربية في المضمون المأخوذ عن صورة الأرض. على أن أصثالة الكندي، بقدر ما نستطيع الحكم عليها، تكمن، فيما يبدو في التمسك بالتجريب وتطبيقه على المنطوق العربي ذاته، أو على الأصح في تحويل التجريب إلى شعار عند تعريب المعطيات المنقولة عن اليونان، فلا يتردد الكندي ومدرسته بقبول أرقام بطليموس. (أندريه، 1993، الصفحات 170–171).

6 يُعد ابن خرداذبة رائد الجغرافية الإدارية، فهو من أصل فارسي اعتنق الاسلام وكاتب، وقد أهدي مصنفه إلى أحد رجالات السلطة وهو يتستر وراء حديث وصف الأرض العام، ووراء حرصه الدقيق على تقليد المتقدمين وبطلميوس، لكن يتناول معظم مصنفه في واقع الحال دار الاسلام ويسوق القارئ إلى اكتساب معرفة مفصلة عن هذه الامبراطورية. وهكذا تصبح الغاية المحققة أو المعلنة في المصنف اسلامية في جوهرها لا عربية لأن ابن خرداذبة يلعب بأمانة وهو من يمثلهم أحسن تمثيل من موالي الفرس، لعبة وحدة واللغة، ومع ذلك لا يهب جزيرة العرب في وصفه أراضي دار الاسلام، إلا مكانة جزء بين سائر الأجزاء، ويعارض في مجمل مصنفه بين قبلة مكة الدينية، المشار إليها باختصار وبين المركز السياسي لجزيرة العراق والسواد، كذلك تطغى ذكريات فارس على نطاق واسع على ذكريات اليمن. لذا يرى المقدسي الذي ألف كتابه في الجغرافية حوالي 385هـ/985م، أن كتاب ابن خرداذبة مختصر جدا، لا يحصل منه كبير فائدة. (ميتز، 1986، صفحة 454) (المقدسي، 2003، صفحة 39) (مينورسكي، 1985، صفحة 9).

7 أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب كان واضح يتشيع سرا على الرغم من صلاته الوثيقة بالعباسيين ومناصبه الرفيعة، الولاية على أرمينية وآذربيجان أولا ثمّ على مصر، وقد عوقب على تشيعه بالموت بعد أن يسر لإدريس العلوي الفرار إلى المغرب بعد معركة فخ، وقد توراثت أسرته التشيع صنف اليعقوبي عام 276هـ/889م كتابه البلدان، معتمدا على ملاحظاته الخاصة. ويبدو تأثير اليعقوبي حاسما في تطور الجغرافية المستقبلية على مستوين اثنين، فعلى المستوى التاريخي المحض. أدى إلى أن انفتاح صورة الأرض على موضوع مملكة الاسلام والأدب، كرر حركة إنعاش الأدب الاداري الذي يلعب بلا ريب دورا فاصلا في الأساليب والمؤثرات، فاليعقوبي من أشهر المصنفين الرسميين الدائرين في فلك السلطة، لأنه يتمتع بنفوذ شخصي نابع من قيامه بمهام الكاتب، ويضيف إليه نفوذ آله ممن تولوا أرفع المناصب، وكانوا من أنصار الخلفاء العباسيين، ومن حاشيتهم المقربة، فله إذن نفوذ سياسي وأدبي، تثبته كثرة استشهاد من جاء بعده من المصنفين بكتاب البلدان ويؤثر تأثيرا كبيرا. ويحدث تغيير حاسما في نطاق الفكر الجغرافي ذاته، وفي نمط من الثقافة العربية الاسلامية في القرن 4هـ/10م فثورة الرحلة وما ضمنت الأدب الجغرافي من مواضيع بشرية، سوف يؤولان إلى نمط مسالك وممالك جديدة تجاوزت فيه الجغرافية البشرية، لأول مرة منعطف الصياغة اللاواعية. (ميتز، 1986، الصفحات 455–456) (أندريه ميكيل، 1993، الصفحات 194–196) (بروكلمان، 1950، صفحة 236).

8 أبو عبد الله أحمد بن محمد الجيهاني من جيهان، بلدة بخراسان، تولى الوزارة للأمير أبي الحسن نصر بخراسان بعد مقتل ابيه، وكان صاحب فلسفة، ونجوم وهيئة، فجمع الغرباء، وسألهم عن الممالك ودخلها، وكيف المسالك إليها، ليتوصل بذلك إلى فتوح البلدان، ويعرف دخلها، إذن كانت اهتمامه السياسي الدافع الأساسي لكتابة مصنفه "**المسالك في معرفة الممالك**" لا ينفصل عن أطماع الفتح والدخل .فقد أدمج الجغرافية النظرية في سياق كلامه عن الجغرافية الادارية، التي تستهدف عنده تحقيق غاية عملية مباشرة وتجريب مواضيع الجغرافية النظرية تجريبا حسيا. لكنه مات قبل أن يتمه فاختصر وكتب من جديد. (ميتز، 1986، الصفحات 462–463) (أندريه ميكيل، 1993، صفحة 168).

9 نصراني اعتنق الاسلام، وهو ينتمي إلى أسرة مسيحية، تولى منصب صاحب البريد وعرف ابن خرداذبة مما يفسر لأول وهلة، منظوره الواسع جدا في مصنفه الرئيسي نعني كتاب الخرج وصناعة الكتابة. ولا غرو فلديوان الخراج مكانة متوسطة بين سائر دواوين الخلافة، ويحتاج موظفوه إلى معرفة الأرض المملوكة، والشرع المطبق عليها وعلى من يقطنها من الناس، وأخيرا إلى اتقان ما ينبغي أن يعرفه جميع الكتاب لصياغة القرارات الإدارية. ويمثلون بوضوح تام ما سبق تحديده من عناصر شخصية الكاتب المساح الفقيه، مما دفع قدامة إلى القول بأن لا مجال إلى معرفة نشاطات ديوان الخراج معرفة جيدة إذا لم تربط بنشاطات الدواوين الأخرى. (أندريه ميكيل، 1993، صفحة 189).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

10 ولد المقدسي في عام 335هـ/947م ببيت المقدس وتوفي سنة 380هـ/990م.

11 الكورة المدينة والصقع والجمع كور، والكورة من ...الرستاق فارسي معرب، ويُقال: رزداق ورياق والجمع الرساتيق، وهي السواد. (المقدسي، 2003، صفحة 210،41).

12 لم يفكر أمراء الدولة الأموية في لقب الخلافة لأنهم كانوا يرون الخلافة تراثا لأهل البيت، ويدركون قصورهم عن ذلك، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية، وانهم بعبارة أخرى: كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين. غير أن مستجدات القرن 4هـ/10م السياسية وما رافق ذلك من تغير في خارطة العالم الاسلامي فضلا عن عوامل أخرى دفعت الأمير عبد الرحمن الثالث إلى اتخاذ ألقاب الخلافة ويمكن ترتيب العوامل على النحو التالي:

-ضعف الخلافة العباسية أيام الخليفة المقتدر (320-295هـ) واستبداد الأتراك بشؤون الخلافة.

-ظهور دولة العبيديين وسيطرتها على بلاد المغرب وإعلانها الخلافة سنة 297هـ.

-اتخذ الأمير عبد الرحمن لقب الخليفة ولقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة 316هـ. (السامرائي وآخرون، 2004، صفحة 162، 362).

13 **عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان:** الشهير بالجاحظ (ت255هـ/869م)، أحد عظماء الكتاب عاش في الفترة الأساسية لنشوء الجغرافية العربية الذي يُعد رائدا من روادها، فمصنفاته اتسمت بأهمية بالغة. من أهمها كتاب الأمصار وعجائب البلدان وكتاب التربيع والتدوير، وكتاب الحيوان، كان الجاحظ يتأثر بعقلانية المعتزلة فهو يرى أن العقلانية التي تُلهم نهج التفكير اليوناني والمعتزلي، وتسمح بتجديد الإسلام دون أن تؤثر في أسسه ولا سيما الأساس العربي. (السامرائي، 2004، صفحة 162، 362).

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

1- المقدسي، محمد بن أحمد، (2003)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، الأردن، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن.

2- ابن حوقل، محمد، (1996)، **صورة الأرض**، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة.

3- المسعودي، الحسين بن علي، (1990)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، لبنان، الشركة العالمية للكتاب.

4- الحموي، أبي عبد الله بن عبد الله، (1977)، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر.

ثانيا: المراجع

5-مينورسكي، (1985م)، **الجغرافيون والرحالة المسلمون**، الكويت، الجمعية الجغرافية الكويتية.

6- ميكيل، أندريه، (2016)، **العالم والبُلدان**، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.

7- بروكلمان، كارل، (1950)، **تاريخ الأدب العربي**، القاهرة، دار المعارف.

8- ميكيل، أندريه، (1993)، **جغرافية دار الاسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر**، دمشق، اشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع.

9- ميكيل، أندريه، (1993): **جغرافية دار الاسلام**، دمشق، اشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع.

10- متز، آدم، (1986)، **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، تونس-الجزائر**، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب.

11- كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش، (1957م)، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، القاهرة، جامعة الدول العربية، القاهرة.

12- السامرائي، خليل، (2004)، **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، لبنان، دار المدار الاسلامي.

13- اسماعيل، محمود، (2005)، **سوسيولوجيا الفكر الاسلامي طور الانهيار**، القاهرة، دار مصر المحروسة.

14- لومبار، موريس، (2003)، **الإسلام في مجده الأول**، ترجمة: إسماعيل العربي، المغرب، منشورات دار الآفاق الجديدة.

15-الدوري، عبد العزيز، (2011)، **دراسات في العصور العباسية المتأخرة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

المقالات

16-الديلمي، محمد سهيل، (2020)، **مخطوط صور الأقاليم لأبي زيد البلخي (ت322هـ) دراسة في المحتوى والمنهج**، مجلة كلية التربية

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الأساسية للعلوم التربوية والانسانية، العدد 48، الصفحات155-156.

17- سامي، هوشات، (2023)، **علاقات العباسيين مع الدول المستقلة في المشرق الإسلامي الدولة السامانية أنموذجا (261-389هـ/874-999م)**، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مجلد8، ع2، الصفحات، 79، 111.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)